

دعامتان قرينتان

لإصلاح حال الفلاح الصغير

للدكتور عبد أبو طائلة

أجريت تجارب كثيرة لإصلاح حال الفلاح الصغير ، والارتفاع بمستوى معيشته ، سواء في ميدان التعليم ، أو الصحة ، أو الزراعة أو الاقتصاد . وقد خرج ولاية الأمور من تلك التجارب بنتيجتين جمعتهما إدارة الفلاح المنشأة حديثا دعامتين أساسيتين لكل إصلاح تبتغيه لأحوال الفلاح الصغير : (الأولى) أن وجوه الإصلاح المختلفة يجب أن تتم في وقت واحد (والثانية) أن الفلاح يجب أن يؤمن بضرورة الإصلاح وفائدته ، ويساهم فيه بالنصيب الأوفى ، وعلى الحكومة الإرشاد والتوجيه والمعونة المالية .

ولقد جرب التطعيم وحده زمانا ما ، ونشرت المدارس الإلزامية في التري والكفور ، ولكن ما فائدة تهذيب النفوس وحشو الرؤوس ، اذا كانت المعدة خاوية وكان الجسم ضعيفا مريضا وهل يقبل الخائع على الدرس ويلتذ المريض بالعرفان ؟ وهل ليس الرغيف في هذه الحالة أهن من الكآب ، والدواء أجدى من الحساب ، والكساء أنفع من جاء زيد وضرب بكر ،

كذلك جربت الصحة بوجهيتها : الوقاية والعلاج ، فردمت برك ومستنقعات ، وحوربت الملاريا وكوخت البلهارسيا والانكلوستوما ، ونشرت بين الفلاحين ارشادات صحية سمعوا فيها حثا على النظافة وحضا على مجانبة أسباب المرض ، وأقيمت مستشفيات ومراكز لرعاية الطفل ، وحىء بالأطباء للعلاج ، وصرفت الأدوية بالمجان أو بأجر زهيد . ولكن الفلاح ظل رغم كل ذلك عليلا هزيعا ، كلما دعى الى الاستمساك بأسباب الصحة ووسائل النظافة ، حال فقره دون ذلك ، وكلما وصف له العلاج الناجع ، رذته جهله الى العادات البالية ووضعه بين براثن المرض .

ثم جرت الزراعة والاقتصاد ، من إرشاد زراعي وتعاون بين الزراع ، فالتقت على الفلاحين محاضرات ، ووزعت نشرات ومجلات . وأسست بينهم جمعيات بعد جمعيات ، ولكنهم بجهلهم لم يدركوا كنه الإرشاد ولم يدروا حقيقة التعاون ، وانقردهم لم يستطيعوا حسن اختيار البزور ولم يتركوا في الجمعيات التعاونية .

وهكذا تجرد الدائرة منفرعة الحلقات ، اذا جثت الفلاح من ناحية العلم صدك عنه المرض والفقر ، واذا غمزته من جانب الصحة ردك الفقر والجهل ، واذا لمست من ناحية الزرع والنفع ذهب الجهل بكل فائدة ترجى .

ولقد تسمع بعض الدعاة المصلحين ينادون بأهل أصواتهم قائلين إن الفقر وحده أصل البلوى وسبب الشقوة ، فاذا كوخ زالت معه الجهالة وولت الأدواء بفعل ساحر . فلنجا رب هؤلاء الدعاة في دعوتهم ، فليس أشق على نفوسنا من أن نرى الفقر فاشيا بين صغار الزراع ، وليس أحلى على أسماعنا من رنين الذهب ينثر على رؤوسهم نرا ، ولكن ما قول اولئك الدعاة في الفلاح عام ١٩١٩ و عام ١٩٢٠ حين ارتفعت أسعار القطن والحاصلات الأخرى اضعافا مضاعفة فامتلا جيبه وعمر بيته وكثر خيره ؟ أنراه يومئذ قد ارتقى صحة وارتقى علما وثقافة ، أم عجز الرضاء وحده عن تحسين الصحة وتنقيف العقل . وبقى الفلاح مريضاً رغم رغبته ، جاهلاً رغم يسره ؟ بلى وقد أودى الجهل في النهاية بكل ما كسب من مال ، فبدده في أيام معدودات ولم يدخر منه ما يعينه على السنوات المجاف التي تلت وقت العز والمناة .

الحق أن وجوه الإصلاح الثلاثة لازمة معا ، ولا غنى لأحدها عن الآخرين . فعلاج الفقر لا يكفي وحده ولا بد معه من العلم والصحة . والحال كذلك مع الصحة اذا عولجت وحدها ومع العلم اذا نشر وحده .

وانما يرتقى الفلاح ويرتفع مستوى معيشته اذا زاد دخله ، وعولج مرضه ، وثقف عقله في آن واحد ، فإن هذه الثلاثة متوازنة يعاون كل منها الاثنى الباقين ، فالرغد يساعد على حفظ الصحة واستيعاب المعرفة ، والصحة تعاون على زيادة الدخل وفهم الحقائق ، والعلم يهتجر بوسائل الكسب والاحتفاظ بالصحة .

وعلى هذا الأساس تعمل ادارة الفلاح في سعيها لإصلاح حال الفلاح ، وعلى هذه العمدة الثلاثة نبت مشروع (المراكز الاجتماعية) الذي لم يئن الأوان بعد ، لشرح مرامييه وتفصيل غاياته .

أما القاعدة الثانية التي يقوم عليها الإصلاح فهي إشراك الفلاحين أنفسهم فيه ، ويتخذ ذلك خطوات وأشكالا متتالية :

(أولا) إقناع الفلاحين بضرورة الإصلاح ونفعه .

(ثانيا) إشراكهم في إنفاذ الإصلاح قدر إمكانهم ومعاونتهم عليه بكل وسيلة .

(ثالثا) جعلهم يحرصون على الاستفادة من مشروعات الإصلاح ووصولها من الزوال .

ولقد بوشرت إصلاحات حكومية كثيرة لفائدة الفلاحين ، ولكنهم بقوا عنها بمعزل عنها لأنهم لم يؤمنوا بضرورة ونفعها ، ولم يساهموا في إقامتها تبعا لذلك الإيمان ، ثم لم يقبلوا عليها كل الإقبال المرجو ، ولقد قضت ظروف الفلاحين منذ عهد المماليك ثم منذ الفتح العثماني بأن يرتابوا في كثير مما يعينهم عن طريق الحكومة ، ولم يعلم أكثرهم أن العهد قد تغير من زمان بعيد ، فصارت الحكومة لا تنشدهم غير نفعهم وصالحهم . وإن يزول ذلك الوهم من أذهانهم إلا بإرشادهم وتوجيههم حتى يقوموا بالإصلاح المنشود بأنفسهم ويروا الحكومة تعاونهم على إتمامه بالمال والرجال .

أما قيام الحكومة وحدها بالإصلاح فإنه مهمات كبر فائدته غير مضمون الثمرة ، ولا مكفول البناء . وحل أنك حديث برك ردمت ثم أعيدت بركا كما كانت ، وصهاريش لماء الشرب العذب أقيمت ، فلم يكده ينتفع منها أحد ، ومراحيض صحية شيدت فزركها الفلاحون الى شواطئ الترع كما اعتادوا ؟

إنما يتم الإصلاح على الوجه الأكل حين يؤمن به الفلاحون ويقومون به بأنفسهم ثم يقبلون على الاستفادة منه وصيانتته .

والإصلاح في هذه الحالة لا يكلف الا جزئا قليلا مما يكلفه لو قامت به الحكومة وحدها ودون اشتراك الأهالي فيه .

وخير ما يكون ذلك الاشتراك عن طريق الجمعيات التعاونية التي تجمع بين الفلاح الصغير والفلاح الكبير ، وتوحد بين مصلحة الأفراد ومصالحه المجموع ، وتشمل الخدمات المادية والاجتماعية معا ، والتي تمثل جهود الشعب الى جانب جهود الحكومة ، والشعب اذا أراد فعل ، واذا آمن أقدم ، واذا أقدم فلن يتمهده شيء عن سبيله .